أدب الفقهاء

- ٩ -

المدح :

لا يمدح الفقهاء رغبةً في المال ، ولا يتعرضون للأمراء قصد الحصول على جوائزهم فان ذلك شأن الشعراء الذي ابتذلوا الشعر بالتكسب به ، بعد أن كان عزيزاً رفيعاً . أما الفقهاء فانهم احتفظوا للشعر بمكانته العالية ولم يغضوا من قالته الذين ينتمون إلى طبقتهم ، لاعتزازهم بالعلم وترفعهم عن السؤال ؛ ولقد كانوا هم الذين سجلوا هذه الانتكاسة التي وقع فيها الشعر ، منذ عهد النابغة والأعشى ، كما نرى ذلك في كتاب العُمْدة وغيره من دواوين الأدب ، فليس غريباً أن نرى عكس القضية بالنسبة إليهم ، أي أن يمدح الأمراء الفقهاء ، فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور يقول في عمْرو بن عُبيد وقد بهَره علمُه وزهدُه :

كلكم يمشي رُوَيْد كلكم يطلبُ صيْد
غير عمرو بن عُبيْد

ولما مات رثاه بأبيات من نظمه (١) ، ولم يُسمع بخليفة رثى مَن دونه سواه .

وأصفقت كلمة الفقهاء على ذم من خالف هذا السلوك وتعلق بأذيال الملوك ، حتى قال أبو القاسم الشاطبي منهم :

---

(١) انظر ابن خلكان ج ل ص ٣٨٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

قُـــلْ للأمير مقالةً من عالمٍ فطنٍ نبيـــه
إن الفقيـــه إذا أتى أبوابكم لا خير فيـــه

وهم يصدرون في ذلك عن مبدأ استقلال القضاء ، إذ كانوا هم أهلَه ومتولّيه ، وعن مبدأ حرية الفكرة إذ كان لهم حق الرقابة على سياسة الدولة بموجب تصديهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمهمتهم لا تتلاقى بحال مع مداخلة الأمراء ومدحهم وإسلاس القياد لهم ، ولذلك كانوا يشتبهون بالفرد منهم إذا خرَق هذا الناموس ولم يحافظ على وقار العلم وجلاله . وكان العامة معهم على هذا الرأي ، فهم لا يُكبرون قدر العالم إذا كان يحشُر نفسه في حاشية السلطان ، لأن ذلك مدعاة لموافقته على هواه ، والأمر بكل اعتبار لا يعدو ما فطن له الغربيون أخيراً ولم يحصلوا عليـــه إلا ببذل التضحيات الجسيمة ؛ وهو حماية القانون والتعبير عن الرأي بفصل السلطات والحصانة النيابية وما إلى ذلك .

وأكثر ما يمدح الفقهاء تقريظاً لزملائهم من أهل العلم والدين ، وتمجيداً للرسول (ﷺ) وثناءً على الله عز وجل . ولا يعني هذا أن أحداً منهم لم يمدح أميراً ولا ذا سلطان قط ، فلكل قاعدة شذوذ . وقد كان هناك من العلماء مَن مدحوا الملوك والخلفاء ، إلا أنهم قِلّة . ومع ذلك فهم لم يستهتروا في هذا الأمْر استهتار غيرهم من الشعراء ، ولم يتخذوه حرفة . وكانوا لا يمدحون إلا من يستحق المدح ، ويلاحَظ أن مدحهم يُباين مدح الشعراء في الغالب ، فابنُ دُرَيْد لما مدح ابنَيْ ميكال بمقصورته الشهيرة لم يجعلها مدحاً مجرداً على الطريقة التقليدية ، وإنما نظمها لآليءَ وعِقْدَ جواهر ، فجاءت تحفةً نفيسةً تزهو بما تضمنته من فنون الأدب وعيون الحكم ، وصار المدح أهونَ أغراضها حتى إنه لا أحدَ يطلبها لأجله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد تركها سنَّةً تبعه عليها حازم القرطاجني حين نظم مقصورته المعروفة في المستنصر الحفصي سلطان تونس .

ومع ذلك جاء العلامة النحوي أبو زيد المكُّودي فنظم مقصورته في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يسَعْه إلا أن ُينكِّتَ على َسلَفَيْه هذين لمدحها غير من يستحق المدح في نظره ، فقال في آخرها .

مقصورةٌ لكنها مقصورةٌ على امتداح المصطفى خير الورى

ما شِبْتُها بمدح خلقٍ غيرِه لِرُتبةٍ أحظى بها ولا َجدى

ُفقْتُ علاءَ كلَّ ذي مقصورة وإن همُ نالُوا الأيادي والنُّهى

فحازمٌ قد عُدَّ غيرَ حازم وابنُ دُريد لم ُيفِده ما درى (١)

ومن قصائد المدح التي على هذا الغِرار داليةُ أبي علي الحسن اليُوسي في شيخه أبي عبد الله محمد بن ناصر الدَّرعي الشهيرة انها قصيدة عامرة الأبيات ، جمعت من فنون الأدب الشيء الكثير ، كالنسيب والأمثال والحكم والوصف والمدح والتهنئة ، إلى شرح الملكة الإنسانية وآداب السلوك ومنازل السائرين من فلاسفة التصوف ، وكل ذلك في نفَس عالٍ ولغة متينة ، وأسلوب بديع ، وهي تقع في ٥٤٠ بيتاً ، ولا يوجد فيها روي مكروه ولا ضرورة ُتستنكر . ومن محاسنها كما قال صاحبُها أن نسيبها جار على أسلوب معظم القدماء من بكاء منازل الأحباب والأثر ، على التحقيق لا على مجرد الفرض كما هو حال معظم المحدثين .

وهذا مطلعها

عرِّج بمنعرج الهضاب الوُرَّد بين اللِّصاب وبين ذات الأَرمد

---

(١) نشرنا مقصورة المكودي مع شرح مختصر عليها منذ سنين بمصر باهتمام المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأجِزْ من الجِزع الذي بِحَضيضه ... أجداثُ أصداء العَشير الهُمَّد
واربَع على الربع المُحيل هُنيهةً ... إنّ الرُّبوع ربيعُ قلب الأكمد
وقِف المطيَّ على ديار أحبة ... كانوا الغياثَ من الزمان الأنكد

ومن مدحها قوله :

غيث الورى الشيخ ابن ناصر الذي ... نصر الإله به شريعةَ أحمد
وأعاد وجه الدين أبيض مسفراً ... بَهِجاً مُقراً عين كل موحّد
وأقام سمْكَ بنائه حتى سما ... فوق السِّماك على الأواسي الوُطَّد
وأزاح عنه كل حِندس شُبْهة ... وضلالة وغواية وتشدد

ومنه وفيه وصف الوضع الاجتماعي والديني في بلاد الإسلام على ذلك العهد :

وافَيْتَ والبدعُ الحوادث قد دجَتْ ... ظلماتُها ، والجهل واري الأزْنُد
والدينُ مطموس المعالم والهدى ... بَيضُ الأنُوق ولُقطة لم تُنشَد
والسنة الغراء قفرٌ موحش ... ما فيه من هادٍ ولا من مهتد
نشبت بضَبْعَيْها مخالبُ ضيْغم ... من مَألف العادات عادٍ مِجْرَد
ومحا المحاق بدورَها فتكنَّفت ... مُقَلَ النهى ظلماءُ ليل سرمد
وعفت أعاصيرُ الهوى آثارَها ... فاستبهمت عن ناشد أو منشد
واستوثقت أيدي الغواية والهوى ... بأزِمَّة الألباب ، شُلَّت من يَد
والعلم ضاحٍ ظلّه وصدى التقى ... قد همَّ والغي اعتلى بمُجنَّد
فكشفتَ جلباب الجهالة عن سنا ... بدرٍ لسائمة الضلال مُبدِّد
بل ضوءِ صبح بل نهارٍ ناسخ ... آياتُه ليل الشكوك الرُّبَّد (١)

---

(١) نُشرت دالية اليوسي هذه مع شرح لناظمها باسم نيل الأماني في شرح التهاني أول مرة بمصر سنة ١٢٩١ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأنشد الشيخ زروق في ابن عبّاد الرّندي شارح الحِكَم العطائية :

ومِنْ علمه أن ليس يُدعَى بعالم ومن فَقْره أن لا يُرى يدّعي الفَقْرا
ومِنْ حاله أن غاب شاهدُ حاله فلا يدّعي وصلاً ولا يشتكي هجرا

وهذان البيتان قد بلغا في المدح غاية لا يدركها إلا من استحضر معاني الألفاظ المستعملة فيها باصطلاح مشائخ التربية وأهل التصوف . فمن شأن العلماء الراسخين أن لا يتبجحوا بالعلم ، لأنهم يعرفون أن فوق كل ذي علم عليم ، ومنتهى العلم إلى الله العظيم ، فلذلك كان ابنُ عباد لا يُدْعى بالعالم في الوقت الذي كثُر فيه المتهالكون على هذا الوصف حتى كاد يفقد معناه الحقيقي . ومن قرأ كتبه واطلع على ترجمة حياته عرف ما كان عليه من هدْي صالح وسمْت حسَن ، وأيقن أن أمْثَل المدح بالنسبة إليه هو ما جاء في الشطر الأول من هذين البيتين . ثم إن الفقر في الشطر الثاني المراد به فقرُ السلوكِ والطريق المعروفُ عند المتصوفة ، وكونُ الفقير بهذا المعنى لا يدعي الفقر هو المطلوب منه ، لأن دعواه له تُعد تظاهراً ومرآةً للناس . ومِن ثَمَّ قال ابنُ البنّاء السَّرَقُسْطي في نظم المباحث الأصلية :

قولُ الفقير إنني فقيرُ الى الظهور أبداً يُشير

والمتصوفة الأحرار لا يتظاهرون بشيء مما يدل على مذهبهم وطريقهم . ولذلك كثُر إنكار العلماء المصلحين على أدعياء التصوف الذين يحسبون أنه هو لبس المُرقّعات وتعليقُ السُّبَح في الأعناق ، فمِن هُنا كان عدم ادعاء ابن عبّاد للفقر دليلاً على صحة فقْره أي تجرُّده ، وسلوكه على طريق القوم ، لا سيما وهو على ما ذُكِر في ترجمته كان حسنَ اللباس كثير التعطُّر والتطيُّب حتى قيل إن السلطان أراد مجاراته في ذلك فقصَّر عنه ، وهذا مظهر سُنّيّ ينفي عنه كل دعوى في التقشف والمَسْكَنة ، ويأتي البيت الثاني مؤكداً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لإسقاط الدعوى وموافقة الظاهر للباطن بصورة أخرى ، فالحال فيه هو بالاصطلاح الصوفي ما يعرض لأرباب القلوب في لحظات الإشراق من وجد وهُيام ، وشاهِدُه هو ما يصدر عنهم في أثنائه ، من فعل أو قول قد يكون فيه مخالفة للشرع ، لكن الممدوح هنا من ضبْطه لأحواله واستقامة أموره على نهج السنة ، لا يعتريه ما يخدش وقاره ولا يصدر منه ما يخِلُّ بورعه ، وحالُه ثابت لا يحتاج إلى شاهدٍ ، لأنه عَرف مقامَه فلَزِمه ، ولم يكن ليدعي وصْلاً ولا يشتكي من هجر ، لتمام تحقُّقِه بمفهوم (وما منَّا إلاَّ لهُ مقامٌ مَعْلُوم) وهكذا وصف البيتُ صاحبنا بكمال المعرفة وأضفى عليه حلة من جلال القُرب تتقطع دونها الأعناق .

إن هذه الشَّحنة من المعاني الذوْقية والسُّلوكية التي عُبِّيءَ بها هذان البيتان في حُسْن تأتٍّ وبَراعة تَناوُلٍ لَمِمَّا يشهد لأدباء الفقهاء بالإبداع والتفوُّق حتى في المجالات التي تفرَّد بها الشعراء وظنوا أن لا منافس لهم فيها . وسيبقى هذان البيتان علَمَيْن مُفرديْن في باب المدْح بما يختص بالممدوح ، ولا يقبل المشاركة كأكثر أشعار المدح فضلاً عن غرابة مَنْزَعها على الذين لم يعرفوا المدح إلا بالحلم والجود والشجاعة وما شابهها من الأوصاف التي تُرصُّ رَصّاً وقلَّما تُخْرَج في صُور مُوحية وأمثولات حيَّة ، ولذلك أُحبِّب الينا إيرادُهما وتوضيحُها بهذه الكلمة .

ويمدح الفقهاء السلف الصالح اعترافاً بفضلهم ، وإشادةً بمزاياهم ، ومن ذلك قول أبي عمران موسى بن محمد بن عبـــد الله الواعظ الأندلسي في أم المؤمنين عائشة (ر ض) :

ما شانَ أم المؤمنين وشاني هُدِيَ المحب لها وضلَّ الشَّاني
إني أقول مُبيناً عن فضلها ومترجماً عن قولها بلساني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يا مبغضي لا تأت قبرَ محمـد فالبيتُ بيتي والمكان مكاني
إني خُصصت على نساء محمـد بصفاتِ برٍّ تحتهنَّ معان
وسبقتهن إلى الفضائل كلها فالسبقُ سبقي والعِنان عِناني
مَرِض النبيّ ومات بين ترائبي فاليومُ يومي والزمان زماني
زوجي رسول الله لم أر غيرَه الله زوجني به وحباني
وأتاه جبريل الأمينُ بصُورتي وأحبني المختـارُ حين رآني
أنا بِكرُه العذراء عندي سِرُّه وضجيعُـه في منزلي قَمَران
وتكلّم الله العظيم بحُجّتي وبراءتي في محكم القرآن

وهي قصيدة طويلة نتعرض لها في بحث آخر إن شاء الله .

أما مدحهم للنبي (ﷺ) فهو البحر الزاخر ، الذي لا يعرف له أول من آخر ، وقد نظموا فيه القصائد المطولة التي ضمنوها صفاته وأخلاقه وسيرته الكريمة ، والقصائد المتوسطة والمقطعات والأبيات حتى ليحار الباحث فيما يأخذ وما يدع من هذه الدرر النفيسة والأعلاق الثمينة .

ومن الملاحظ أنه بعد الشعراء الصحابة الذين مدحوه (ﷺ) في حياته ، ونافحوا عنه وعن دعوته ، ونازلوا شعراء المشركين في معارك كلامية غبّروا بها في وجُوههم ونقَضُوا كل ما هجوا به الإسلام ورسوله الأكرم ، أمثال حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهما ، لم يتعاط أحد من الشعراء الكبار مدح الجناب النبوي كما تعاطاه أدباء الفقهاء ، برغم إسراف أولئك في مدح ذوي الجاه والحكام من أهل زمنهم ، فأنت لا تجد في ديوان جرير أو الفرزدق مثلاً من شعراء العصر الأموي ولا في ديوان المتنبي أو أبي تمام كذلك من شعراء العصر العباسي مقطوعة فأحرى قصيدة في هذا الغرض ، فهي فضيلة تذكر ، ومأثرة تشكر ، لأصحابنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفقهاء الأدباء ، أبانوا بها براعتهم في هذا الباب من أبواب الشعر ، وعبروا عن عاطفتهم الدينية وعاطفة كل مؤمن ازاء الواسطة العظمى في كل خير ونجح وفلاح أصاب الأمة العربية والإسلامية بل الإنسانية جمعاء من رسالته التي كانت رحمة للعالمين .

فمن أشهر المطولات في هذا الصدد القصيدة المعروفة بالشقراطيسية ، نسبةً إلى ناظمها الشيخ أبي محمد عبد الله بن يحيى الشقراطيسي التوزري المتوفى سنة ٤٦٦ هـ وهي لامية من بحر البسيط جمعت إلى المدح والثناء أحداث السيرة النبوية وحياة الدعوة الإسلامية منذ انبلاج فجرها إلى أن عمت أقطار المعمورة ، وذلك بأسلوب شعري جميل يتراوح بين التقرير والتخييل ، وهي تقع في ثلاثة وثلاثين ومائة بيت . وقد نالت شهرة كبيرة بحيث خمّسها كثير من الأدباء وشرحها وأخذها العلماء بالرواية عن ناظمها . ونجد بعضهم يستشهدون بأبياتها في كتبهم كالزرقاني في شرح المواهب وغيره ، وما غطّى عليها وقلّل من رواجها إلا ظهورُ البردة والهمزية للبوصيري وانتشارُهما هذا الانتشار الواسع المشهود ومطلعُهـا :

الحمد لله منّـا باعثِ الرسُل ... هَدى بأحمد منّا أحمدَ السبُلِ
خيْر البرية من بَدْوٍ ومن حضَر ... وأكرم الخلق من حافٍ ومُنتعل

ومنها في وصف فتح مكة ودخوله (ﷺ) إليها في جيشه الظافر :

ويوم مكة إذ أشرفت في أُمم ... يضيقُ عنها فجاجُ الوعْث والسَّهَلِ
خوافقٌ ضاق ذرعُ الخافقيْن بها ... في قاتم من عجاج الخيل والإبل
وجحفل قذِف الأرجاء ذى لجب ... عرمرم كزُهاء الليل منسجل
وأنت صلّى عليك الله تقدُمهم ... في بهْو إشراق نور منك مكتمِل
ينير فوق أغر الوجد مُنتجب ... مُتوّج بعزيز النصر مقتبَل
يسمو أمام جنـــود الله مرتدياً ... ثوبَ الوقار لأمر الله ممتثل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خشعت تحت بهاء العز حين سمت — بك المهابة فعل الخاضع الوجل
وقد تباشر أملاك السماء بما — ملكت إذ نلت منه غاية الأمل
والأرض ترجف من زهو ومن فرق — والجو يزهر إشراقاً من الجذل
والخيل تختال زهواً في أعنتها — والعيس تنثال رهواً في ثنى الجدل
لولا الذي خطت الأقلام من قدر — وسابق من قضاء غير ذي حول
أهل ثهلان بالتهليل من طرب — وذاب يذبل تهليلاً من الذبل(١)
الملك لله هذا عز من عقدت — له النبوة فوق العرش في الأول

ومن أعلاها نفساً وأحكمها صناعة مطولة ابن أبي الخصال المسماة بمعراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب التي نظم فيها نسبه (ﷺ) إلى آدم عليه السلام بطريقة لم يسلكها غيره من الوقوف عند كل فرد فرد من عمود النسب الشريف وذكر ما له من المناقب ثم عطف على ذلك معجزاته الباهرة وفضائل أصحابه الكرام، متصرفاً في ذلك بفنون القول وأساليب البلاغة التي جعلتها تحظى من كبار العلماء وخاصة الأدباء بعظيم التقدير وفائق الإعجاب، حتى انهم كانوا يتنافسون في روايتها بالسند المتصل إلى ناظمها الذي يعد من أساطين رجال العلم والأدب بالأندلس في القرن السادس. وكان كاتباً لعلي بن يوسف بن تاشفين بمراكش، وقيل إن وصف كاتب لم يطلق على نظير له في الأندلس وهذا أول مطولته :

إليك فهمي والفؤاد بيثرب — وإن عاقني عن مطلع الوحي مغربي
أعلل بالآمال نفساً أغرها — بتقديم غاياتي وتأخير مذهبي
وديني على الأيام زورة أحمد — فهل ينقضي ديني ويقرب مطلبي
وهل أردن فضل الرسول بطيبة — فيا برد أحشائي ويا طيب مشربي

(١) من هل الرجل أي فر وجبن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهل فضلت من مركب العمر فضلة تبلغني أم لا بلاغ لمركبي
ألا ليت زادي شربة من مياهها وهل مثلها ريّاً لغُلّة مذنب
وياليتني فيها إلى الله صابر وقلبي عن الإيمان غيرُ مقلّب
وإن امرءاً وارى البقيعُ عظامَه لفي زُمرةٍ تُلقى بسهْل ومرحب
وفي ذمة من خير مَن وطىء الثرى ومن يَعتلِقْه حبلُه لا يعذّب
ومالي لا أشري الجنان بعزمة يهون عليها كل طام وسبسب
وماذا الذي يثني عناني وإنني لَجوّاب آفاق كثير التقلب
أفقرُ ففي كفّيَّ لله نعمة وبَيْن فقد فرّقتُ بين بني أبي
وقد مرنت نفسي على البُعد وانْطوت على مثلِ حدّ السمهري المذرب
وكم غربة في غير حق قطعتها فهلاّ لذات الله كان تغرُّبي
وكم فاز دُوني بالذي رمتُ فائزٍ وأخطأني ما ناله من تقرب
أراه وأهوى فعله البر قاعداً فياقعَدِيَّ البِرّ قُم وتلبّب
أماني قد أفنى الشبابَ انتظارُها وكيف بما أعيا الشبابَ لأشيب
وقد كنتُ أسري في الظلام بأدهم فها أنا أغدو في الصباح بأشهب
فمَن لي وأنّى لي بريح تحطني إلى ذروة البيت الرفيع المطنّب
إلى الهاشمي الأبطحي محمد إلى خاتم الرسل المكين المقرّب
إلى صفوة الله الأمين لوحيه أبي القاسم الهادي إلى خير مشعب
إلى ابن الذبيحَيْن الذي صيغ مجدُه ولمّا تُصغْ شمس ولا بدرُ غيْهَب

وقد أطلنا بما أوردناه من مطالعة هذه القصيدة ، وقصدنا أن ندل على عارضة صاحبها وقوته على التعبير عن أغراضه وما يجول في ذهنه من المعاني . وكم وددنا لو قدّمنا أمثلة أخرى منها ، ولكن ضيق المجال ، مع ما يقتضيه التمثيل من الوقوف ولو قليلاً على مضامينه الرائعة يمنعنا من ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونظن أننا في غير حاجة إلى ذكر قصيدتي البردة والهمزية للبوصيري ، فانهما لشهرتهما لا يخفى أمرهما على أحد . ولعلنا نعود إليهما في غير هذا الباب .

ونكتفي بهذا القدر من المديح النبوي لنرقى إلى سدرة الثناء على الله عزّ وجل بما هو أهله ، وشكر الإلهّ والتعرض لنفحاته القدسية ، فان للفقهاء في ذلك شعراً بليغاً مصدره حرارة الإيمان وصدى العبودية وقطع اللحظ عما سواه تعالى وهو مقصد قلما يلم به غيرهم من الشعراء ، ولا يقع في كلامهم إلا ندوراً وعلى سبيل الاستطراد .

فمن أحسن ذلك قول محمود الوراق :

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مسَّ بالسراء عمَّ سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
فما منها إلا له فيه نعمـــة ... تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وقوله :

إلهي لك الحمد الذي أنت أهله ... على نِعَم ما كنتُ قط لها أهلا
متى زدتُ تقصيراً تزدني تفضّلاً ... كأنيَ بالتقصير أستوجب الفضلا

ولأبي القاسم السُهَيْلي صاحب كتاب الروض الأُنُف :

صرفتُ إلى رب الأنام مطالبي ... ووجهت وجهي نحوه ومآربي
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه ... مليك يُرجَّى سيْبُه في المساغب
إلى الصمد البَر الذي فاض جوده ... وعم الورى طراً بجَزْل المواهب
مُجيري من الخطب المخُوف وناصري ... مُغيثي إذا ضاقت عليَّ مذاهبي
مُقيلي إذا زَلَّت بيَ النعلُ عاثراً ... وأسْمحُ غفّار وأكرمُ واهب
فما زال يُوليني الجميل تلطفاً ... ويدفع عني في صدور النوائب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويرزقني طفلاً وكهلاً وقبلها جنيناً ويحميني دنيءَ المكاسب
إذا سَدَّت الأملاكُ دونيَ بابها ونهنَه عن غِشْيانهم زَجْرُ حاجب
فزعتُ إلى باب المهيمن ضارعاً مُدِلاًّ أنادي باسمه غيرَ هائب
فلم ألف حُجَّاباً ولم أخش مَنْعَه ولو كان سُؤلي فوق هام الكواكب
كريم يلبي عبده كلما دعا نهاراً وليلاً في الدجى والغياهب
يقول له لبَّيْك عبديَ داعياً وإنْ كنتَ خطَّاءً كثير المعائب
فما ضاق عَفْوي عن جريمة خاطيء وما أحد يرجو نوالي بخائب
فلا تخشَ إقلالاً وإن كنت مكثراً فعُرفيَ مبذول إلى كل طالب
سأسأله ما شئتُ إنَّ يمينه تَسحُّ دِفاقاً بالمُنى والرغائب
فحسبيَ ربي في الهزائز ملجأً وحِرزاً إذا خيفت سهام النوائب

وفي معنى قوله : إذا سدت الأملاك دوني بابها قولُ المكودي صاحب المقصورة آنفة الذكر :

إذا عرضت لي في زمانيَ حاجةٌ وقد أشكلت فيها عليَّ المقاصد
وقفتُ بباب الله وقفةَ ضارع وقلتُ إلهي إنني لك قاصد
ولست تراني واقفاً عند باب مَن يقول فتاه سيدي اليوم راقد

وللشيخ مصطفى البابي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ :

يا حي يا قيوم قد بهر العقولَ سنا بهائك
أُثني عليك بما علمت وأين علمي من ثنائك
هوت المشاعر والمدا رِك عن معارج كبريائك
متحجبٌ في غيبك الأحمى منيع في علائك
عجباً خفاؤك من ظهو رِك أم ظهورُك من خفائك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما الكون إلا ظُلمـــة قبَسَ الأشعةَ من سنائك
وجميعُ ما في الكون فا نٍ مستمد من بقائك
بل كل ما فيـه فقيـــر مستميح من عطائك
ما في العـــوالم ذرّة في جنب أرضك أو سمائك
إلا ووجهتُهـــا إليْـــك بالافتقار إلى غنائك

والثناء على الله عز وجل والتعلق به وسؤاله باب واسع في شعرهم ، وهو على كل حال قمة شعر المدح وذروتُه وسَنامُه ، وقد رأينا أنه كبقيـــة أغراض المدح الأخرى لا يقصر عن أقوال فحول الشعراء في هذا الباب ، فأصحابنا الفقهاء أحرياء أن يرفعوا به الرأس لرفعة شأنه شكلاً وموضوعاً .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net